

الموازنة المطلوبة في حياتنا



« قال تعالى في سورة لقمان، آية 18: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) .

الإنسان إذا ابتعد عن القيم الإلهية والتوجيهات الربانية سيكون بعيداً عن الله - عز وجل - وإذا كان بعيداً عن الله، فإنه لا يحبه، لأن الله يحب من يحبونه ويحب المطيعين له، الذي آمنوا به وأحبوه وأطاعوه واتقوه، هؤلاء الذين يحبهم الله.. أما الذي يسير في الحياة سيرة مع عدم التفات إلى التوجيهات الربانية وإلى الأخلاق الحميدة القرآنية ويمشي في الأرض المشية الغير متوازنة أولئك لا يحبهم الله، ويؤكد هذا المعنى عندما يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) .

المختال هو غير المتوازن في داخله، وغير المتوازن في عمله.. لم يُرَبِّ داخله على الموازين الإلهية، لم يغدِّ نفسه بما أمر الله - عز وجل - لأن النفس فيها التقوى وفيها الفُجور.. كما يقول - سبحانه وتعالى - في سورة الشمس، آية 9-10:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) .

إذا زكَّاهَا يكون متوازناً، وإذا أهملها ودسَّاهَا يكون مختالاً، هذا في الداخل.. وفي الخارج، لابد أن يكون خارجه مطابقاً لداخله، وأن تكون الموازنة عنده دائماً بكل فكره وروحه وعمله وسلوكه.. قال تعالى في سورة القصص، آية 77:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) .

إذا اتَّبع النص القرآن، إذا اتَّبع التربية القرآنية، فلن يمضي في الأرض مرحاً وإنما يمضي

بقصد ووفق الإرادة الإلهية، يمشي وهو منصاع □ - سبحانه وتعالى - بكل حركة وسكون، بكل قول وعمل، لا يمكن أن يكون مختالاً (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)، غير موازن، وغير متوازن، فلا بد أن تكون بغيته الآخرة، ويأخذ حقه ونصيبه من الدنيا المشروعة، هذه الموازنة المطلوبة، النبي (ص) يقول: "إعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً".

إذا جعل الإثنين أمامه - (الدنيا والآخرة) - وقدّم الآخرة لأنّها دار المقر، وجعل الدنيا معبراً للآخرة، فلا يكون مختالاً.. وإن صغر خدّه ومشى في الأرض مَرَحاً، فيكون ممن لا يحبهم □، لأن □ وكما يقول في سورة لقمان، آية 18:

(لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

فالمختال هو غير المتوازن بفكره وروحه بنفسه وعقله، وبعد ذلك في سلوكه وأخلاقه، يقول أمير المؤمنين (ع):

"ليس منا مَن تركَ آخرته لدنياه، وليس منا مَن تركَ دنياه لآخرته".

فلا بد أن يكون الاهتمام الأكبر بالآخرة لأنّها دار القرار ولأنّها دار الحَيَوان (أي الحياة الباقية)، ولا بد أن يعلم حقيقة الدنيا ولا يغتر بها، ف□ - سبحانه وتعالى - يخاطب الأُمّة، يخاطب الناس، يخاطب بني آدم في سورة الحديد، آية 20:

(اعْلَمُوا أَنزَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِيبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأُمُورِ وَالْأُولَادِ).

عندما تكون الدنيا بهذا المفهوم، تكون كما قال تعالى في سورة الحديد، آية 20:

(كَمَثَلُ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَزِرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

هذه حقيقة الدنيا!.. إذن، فلماذا الغرور والخيلاء؟!.. ولماذا يكون الإنسان مختالاً؟!.. ففي الحديث:

"لو كانت الدنيا تساوي عند □ جناح بعوضة، ما سقى الكافر منها شربة ماء".

فهي لا تساوي عند □ شيئاً!.. ولهذا نرى أن الإمام الباقر (ع) يقرّب مفهوم العلاقة مع الدنيا للأُمّة حيث يقول:

"مثل الحريص على الدنيا، مثل دودة القزّ، كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّاً، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً".

فلماذا التعلّق الزائد في الدنيا؟!.. ولماذا الخيلاء؟!.. ولماذا المَرَح الغير إلهي؟!.. ولماذا تصغير الخد؟!.. و□ - سبحانه وتعالى - بقوله:

(لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).

يؤكد أنّ المفاخرة لابد أن تكون بالتقوى والصلاح، وبالإيمان والعبادة، لابد أن تكون المفاخرة بمقدار علاقة العبد مع □، بدرجة الصلاح والاستقامة، بالورع والتقوى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

في هذا لا بد أن تكون المفخرة، ولا تكون بالخيل والغرور، ولا تكون بأن يمشي على الأرض مَرَحًا، ولا تكون بأن يصعّر خده تكبرًا، ولا بأن يكون الإنسان مختلًا.. كل ذلك ليس مما يدعو للتفاخر وإنما كل ذلك لوجود نقص نفسي، لوجود آفات نفسية عند الإنسان وتظهر عنده بهذه الأساليب وبهذه الطرق!.. أما لو كان عالج نفسه وصحّح علاقته مع ربه والتفت إلى عبوديته، عند ذلك يعرف قدر نفسه وأنه عبد.. فيمقدار ما فيه من عبودية، وبمقدار ما أنتجت هذه العبودية من طاعة واستقامة، فيكون مرتاحًا سعيدًا مطمئنًا بعلاقته مع ربه، سعيدًا بعبوديته.. هذا مورد التفاخر، أما التفاخر بمال أو جاه، بثروة أو ملابس، هذه الأمور كلها زائلة لا يصح التفاخر بها، ويعطينا القرآن الكريم مثلاً للتفاخر بالقدرة والمال، فيقول تعالى في سورة الكهف، آية 44-32:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَّتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يَوْفِيَ تَيْبَتًا خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوًى غَوَرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحْيطَ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يَقْلِيبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَزْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا).

هذه مفخرة بين رجل ذي مال ولكنه بعيد عن الله - سبحانه وتعالى - وبين رجل فقير ولكنه مؤمن، وكيف أن التفاخر الذي حصل من الرجل صاحب الثروة وليس له إيمان، أدّى ذلك إلى ذهاب جذته ولم يبق منها شيء، لأن تفاخره كان بشيء مادي.. أما الإنسان الفقير المؤمن الذي يتفاخر بإيمانه وورعه وتقواه وصلاحه، فهذا ما يبقى له.. القرآن الكريم يريد من الأمة أن يكون تفاخرها بالورع، بالتقوى، بالصلاح والاستقامة.. يريد من الأمة جميعاً وخصوصاً من الشباب، لأن الشاب بعمره يكون أقرب إلى التفاخر وأقرب إلى الإختيال والغرور، ولهذا يؤكد القرآن على هذه النزعات النفسية الموجودة في دواخل الإنسان بصورة عامة وإلى دواخل الشباب بصورة خاصة، لنرى أنفسنا:

هل نحن ممن يحبهم الله، أو من لا يحبهم الله؟..

فهذه الآيات الكريمة هي محاورة بين شخصين أحدهما غني كافر والآخر فقير مؤمن، وهكذا كان الأغنياء يتفاخرون على غيرهم بالمال والقدرة، ولهذا قيل بأن قسماً من المشركين كانوا قد اشتروا على رسول الله (ص) أن يطرد المؤمنين الفقراء حتى يؤمنوا به، أو يُعيّن مجلساً للفقراء ومجلساً للأغنياء حتى لا يجتمعوا عند النبي (ص) في مكان واحد، لأنهم (الأغنياء) يزعمون أنهم سادة وأُمراء والناس عبيد لهم وإماء.. هذا ما كانوا عليه في بداية الإسلام، والآيات الكريمة تُعطينا صورة واضحة للأغنياء المتكبرين في شخص رجل غني، وصورة للفقراء المؤمنين في شخص رجل فقير لا يملك شيئاً ولكنه (هذا الفقير المؤمن) يعتزّ بخالقه، أما الغني، فيعتزّ بماله.. فالذي يغترّ بماله ويفتخر به من دون الله (وهو الغني الكافر) يملك بستانين كبيرين عظيمين فيهما زرع كالحنطة والشعير، فيهما أشجار كثيرة ومتنوعة كالنخيل والأعناب، وكل بستان تنفجر فيه عيون المياه بأجل منظر وألطف صورة ويؤتي ثمره ونتاجه بأحسن ما يكون وفي وقته وأوانه، حبواً وفاكهة.. أما المؤمن الذي يعتزّ بخالقه وإيمانه ويفتخر به، فهو لا يملك شيئاً، فقال الكافر للمؤمن في تفاخر وزهو وغرور:

أنا أكثر منك مالاً وولداً وجاهاً، أنظر إلى ما أملك من أشجار وأنهار وزروع وثمار، هذا هو المُلْك الدائم الذي يستمر إلى الأحياد والأولاد بخلاف الجنة التي تتصورون وجودها وتزعمون، أيّها السُّذَّج، أيّها المساكين.. وهل بعد الموت والفناء جنان ونيران؟.. وعلى فرض وجودها، فسيكون حظّي من الآخرة أكثر منه في الدنيا، لأنّ المُتَرَفِّ هنا، مُتَرَفِّ هناك.. هذا كان تصوّر الكافر، تصوّر الذي يتفاخر بماله.. أما المؤمن، فكان جوابه للكافر زجراً وتوبيخاً له، فقال المؤمن للكافر:

إنَّكَ تقول هذا كُفْراً بالذي سوَّاهُ رجلاً، أنت الذي خلقتُ اﷻ - سبحانه وتعالى - أما أنا فأؤمن باﷻ - سبحانه وتعالى - وحده لا أُشركُ به أحداً وأحمده وأشكره على هدايته، ولو أنَّكَ - أيُّها الكافر - من أهل البصيرة والرُّشد لأمَّنتَ باﷻ - سبحانه وتعالى - وتواضعتَ له وشكرته على نِعَمِهِ وآلائِهِ ولم تأخذك العزَّةُ بالإثم.. وما إنَّ أكملَ المؤمنُ كلامه مع الكافر حتى غارت الأنهار.. وسقطت الأشجار.. وهلك الزرع.. وذهب كل شيء في جذَّة الكافر التي قد اعتزَّ وتفاخر بها وقال:

"ما أظُنُّ هذه أن تبيدَ أبداً".

وبعد أن رأى الكافر ما حصل بجذَّته نتيجة تفاخره وكلَّ ذلك من مُنع اﷻ - سبحانه وتعالى - لجذَّته، قال في انكسار وحسرة:

(يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا).

والعبرة من هذه الآيات الشريفة والقصد منها: يكون الإنسان مؤمناً إيماناً واقعياً، إيماناً فكرياً وعقلياً، قولاً وسلوكاً: بأن لا حول ولا قوة إلاَّ باﷻ العلي العظيم، وأنَّه القادر على كلِّ شيء، وأنَّ الإنسان عبدٌ له، مطيعٌ له، منصاعٌ إليه.. فإذا تفاخر بشيء، فليتفاخر بعلاقته مع اﷻ - سبحانه وتعالى - وإنَّ اعتزَّ بشيء، فليعتزَّ بطاعته اﷻ - سبحانه وتعالى - وإنَّ افتخر بشيء، فليفتخر بأنَّه عبدٌ له. ►

المصدر: كتاب التواضع.. إنسانية وعبودية